بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: ١٠٥ **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ: ٢٧/ ٢٠٢٤/١١م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

وصل الكلام إلى الآية ما قبل الأخيرة، وهي الآية رقم ثلاثين، وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكيماً﴾.

قلنا هذه الآية شبيهة بالآية الواردة في سورة النبأ، هذه الآية مع ما قبلها، وهي: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً (٣٨) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً﴾[1] إلى آخر الآية.

نلخص الأمر في البحث السابق: في الآية السابقة يوجد حديث عن مشيئة العبد ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾، وفي هذه الآية المباركة حديث عن مشيئة الخالق ﴿إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾ فجمعت هذه الآية بين مشيئة العبد ومشيئة الباري تبارك وتعالى ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكيماً﴾.

خلاصة المطلب: كما أشرت في البحث السابق يوجد أنظار في مشيئة الخالق في هذه الآية، هناك نظر يذهب إلى الجبر، هناك نظر يذهب إلى التفويض المطلق.

عند علمائنا يوجد تفسيران:

التفسير الأول: ما أشرت له في البحث السابق من أن مشيئة لم تتعلق بفعل العبد، إذ لو تعلقت بفعل العبد صار فعله مقهوراً عليه، وهذا عين الجبر. وإنما تعلقت بمشيئة العبد؛ لأن مشيئة العبد لا بد أن تصل إلى مرحلة لا تحتاج فيها إلى مشيئة للعبد، وإلا للزم التسلسل، حتى في مشيئته إذا احتاج إلى مشيئة ننقل الكلام إلى هذه المشيئة الجديدة فنقول تحتاج إلى مشيئة، وهكذا تذهب السلسلة إلى ما لا نهاية.

[1] النبأ: ٣٦ ـ٣٩

وإنما مشيئة الباري تبارك وتعالى تتعلق بمشيئة العبد، ولا ينافي ذلك الاختيار؛ لأن الفعل الاختياري كان اختيارياً لاستناده إلى مشيئة العبد واختياره، وأما اختيار العبد فليس مستنداً إلى اختيار آخر فتنقطع السلسلة حتى لا يلزم التسلسل. فتعلقت مشيئة الباري بمشيئة العبد.

هذا تصوير تبناه العلامة الطباطبائي ﷺ في أكثر من موضع.

التفسير الثاني: تبناه جمع من العلماء، ومنهم الفيض الكاشاني في كتاب بوارق القهر في تفسير سورة الدهر، عندما يتناول هذه الآية الشريفة مع ما قبلها، فيبيّن أن المقصود من مشيئة الخالق هي علمه، فحينئذ يكون معنى قوله ﴿إِلاَّ أَنْ يَشاءَ﴾ أي إلا أن يعلم. فحينئذ لا يوجد أي مشكلة.

إذا صح التشبيه، وهذا من عندي لتقريب الفكرة: إذا شخص خبير في الطرقات، وكان يجلس على تلة ويرى سيارة مسرعة أكثر من ١٤٠ كيلو متر في الساعة على منحدر جليدي، فصار لديه علم أن هذا عندما يصل إلى تلك النقطة سوف تنزلق السيارة وتذهب إلى الوادي ويموت. فعلم هذا الخبير ليس هو الذي قتل السائق، وإنما السائق باختياره فعل هذا الفعل.

وإنما قلت هذا لتقريب الفكرة لأن علمنا لا يقاس على علم الله سبحانه وتعالى.

فيرى الفيض الكاشاني أن هذه المشيئة التي تتعلق بمشيئة العبد أو بفعل العبد هي بمعنى العلم الثابت أزلاً أنه سوف يفعل هذا الفعل، وهذا لا يتنافى مع الاختيار، وينسجم مع نظرية الأمر بين أمرين.

ثم جاء بشواهد على أن المشيئة تستعمل بمعنى العلم، ومن جملة هذه الشواهد كما ورد في الخبر (نهى الله آدم عن أكل الحنطة وشاء أن يأكلها). هذا لو كان (وشاء أن يأكلها) مشيئة إلهية تكوينية على نحو كن فيكون لا ينسجم مع نهى.

وكذلك في قوله (وأمر إبليس بالسجود وشاء إلا يسجد) أي علم أنه لا يسجد. فعلمه بإنكاره أزلاً عُبّر عنه بالمشيئة.

نحن لسنا بصدد تحقيق هذا المطلب. هناك بحث تفصيلي في حمل المشيئة على العلم، فالبعض حتى في العلم الأزلي لله سبحانه وتعالى يطرح شبهة الجبر.

الفيض الكاشاني في تكملة كلامه يقبل مثل هذه اللوازم.

إذا كان المشيئة بمعنى العلم الأزلي فيصبح أمر الوعاظ بالوعظ على نحو الموضوعية للواعظ، لا أنه يأمرنا بالوعظ لأجل أننا سوف نغيّر في الطرف الذي نعظه، وإنما هو تكليف علينا، وليس له علاقة بذلك الطرف؛ لأنه إذا في علم الله الأزلي، تعلق أنه مهدي فوعظي لا يقدم ولا يؤخر، وإذا تعلق العلم الأزلي أنه غير مهدي فوعظي لا يقدم ولا يؤخر.

فهذه من جملة اللوازم التي تورد على مثل هذه المباحث. تحقيقها التفصيلي ليس محله هنا.

نرجع إلى بحثنا، هناك مطالب ثلاثة في هذه الآية المباركة:

المطلب الأول: الرسالة التي يراد إيصالها من هذه الآية المباركة.

هذه الرسالة -في الواقع- تشتمل على بعدين:

البعد الأول: موجه إلى عامة الناس، لا يتوقع أولئك الذين استفادوا من أدوات الهداية وسلكوا طريقها أنهم بذلك يستغنون عن مشيئة الله، حتى المؤمن أحياناً يقع في الغرور، أنه هذا الإنسان المؤمن الذي يشترك مع غيره في وسائل المعرفة جعله الله سميعاً بصيراً وهداه النجدين وجهّز له كل وسائل المعرفة، فاستفاد هذا المؤمن من وسائل المعرفة فلا تقع أيها المؤمن بالغرور؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تبقى فوق كل شيء.

البعد الثاني: هذه الآية فيها نوع من الطمأنينة لأولئك الذين يسلكون هذا الطريق؛ أنكم يا من سلكتم هذا الطريق أنتم خاضعون لمشيئة الله، بمشيئة ربكم تبارك وتعالى، والذي لا يوجد في ساحته ظلم ولا حيف، فحينئذ إذا استندت إلى مشيئة ربي فأنا استند إلى ركن شديد. ففيها نوع من الطمأنينة ﴿وَما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾ هذا الذي يعلم أني اخترت طريق الهداية حتماً لن تكون مشيئته إلا لصالحي، فهذا باعث على الطمأنينة؛ لأنه لا يظلم ولا يحيف ولا يجور.

المطلب الثاني: وجه الالتفات في هذه الآية المباركة.

هذا بحث مهم جداً قلّ من تعرّض له ﴿وَما تَشاؤُنَ﴾ التاء هي تاء الخطاب، أي أنتم.

قبل هذه الآية كان الكلام على نسق الغيبة ﴿هؤلاء﴾ فلم يقل أنتم، في آية ﴿إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ وكذلك كلمة ﴿يَذَرُونَ﴾ تدل على الغيبة. وكذلك قوله ﴿نَحْنُ خَلَقْناهُمْ

وَشَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَإِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْديلاً﴾ فكلمة ﴿خَلَقْناهُمْ﴾ و﴿شَدَدْنا﴾ تدل على الغيبة، وقوله ﴿إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾ ، فكلمة ﴿فَمَنْ شاءَ﴾ يتكلم عن غائب، فجاء في هذه الآية المباركة والتفت من الغيبة إلى الخطاب، فما هو وجه هذا الالتفات؟

ينبغي أن نلتفت إلى أنه في الآية يوجد قراءتان:

القراءة الأولى: القراءة المشهورة ﴿تَشاؤُنَ﴾ بالخطاب.

القراءة الثانية: قرأها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، قرأوها ﴿وما يشاؤون﴾ فعلى هذه القراءة لا يوجد التفات، وهو مطابق مع الأسلوب الذي تقدم في الآيات السابقة، وهو أسلوب الغيبة. فلا يوجد هذا البحث.

أما على تقدير صحة قراءة المشهور، فما هو وجه الالتفات في ذلك؟